

التسامح الديني بين الإسلام والمسيحية

في الشعر السوداني - فترة ما قبل الاستقلال

د.كمال علي محمد الشيخ^١

المستخلص :

تتناول البحث موضوعاً مهماً يتوقف عليه مستقبل الإسلام في السودان بل وفي إفريقية من ناحية، واستقرار دولة السودان من ناحية أخرى، وهو موضوع التسامح الديني بين الإسلام والمسيحية من منظور الشعر والشعراء، وأكدَّ البحث أن قيم التسامح الديني بين الإسلام والمسيحية في السودان كانت راسخة في نفوس الشعراء المسلمين والمسيحيين على حد سواء، في فترة تعد من أحلك فترات التاريخ السياسي في السودان وهي فترة الاستعمار الإنجليزي ١٨٩٩ - ١٩٥٦م. وقد رجح الباحث أن الصراع بين الإسلام والمسيحية في السودان لم يكن من الأسباب التي أدت إلى انقسام السودان إلى دولتين بعد انتخابات التاسع من يناير ٢٠١١م، كما روجت لذلك كثير من وسائل الإعلام الأجنبية، وصورت أن أسباب النزاع بين شمال السودان وجنوبه أسباب دينية بين المسلمين في شمال السودان والمسيحيين في جنوبه.

^١ أستاذ مساعد - جامعة وادي النيل

Abstract:

The research handles a very important topic that both Sudan and even Africa might be affected by it. It is the religious Leniency between Islam and Christianity in Sudan from the point of view of poem and poets.

The researcher found that the leniency value in both Islam and Christianity was deeply rooted in an era considered as the darkest period in the political history of Sudan (١٨٩٩ - ١٩٥٦) which is the period of the British Colonization, thus the researcher found that the conflict between the two parts is not due to the religions as shown by foreign media in the end to the division of Sudan into two countries after the election taking place on the ninth of January ٢٠١١.

المقدمة:

الحمد لله الذي هيا لي القيام بهذا البحث، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

يأتى هذا البحث في فترة حرجة من تاريخ السودان الحديث بعد أن انقسم السودان في التاسع من يناير ٢٠١١م إلى دولتين : شمالية عربية مسلمة، وجنوبية إفريقية غير مسلمة، وقد كان من أهم الأسباب التى أدت إلى هذا الانقسام ما أثير حول الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية فقد (دأب الإعلام على توصيف النزاع بين الأفارقة المسيحيين من جهة، والعرب المسلمين من جهة أخرى، وقد شكل هذا التوصيف خارطة الاستقطاب حيث انحازت أكثر دول إفريقيا جنوب الصحراء للمتمردين، ودعمتهم كذلك الكنائس، والهيئات الدينية المسيحية، وأثر هذا بدوره في الدعم الغربي للتمرد على الرغم من أن السودان ظل معظم الوقت يصنف في معسكر الموالاتة للغرب)^(١).

وبعد أن انقسم السودان إلى دولتين فإنّ النزاع لا يزال مستمراً بينهما، ومن هنا يحاول الباحث أن يثبت في هذا البحث أن قيم التسامح الديني كانت راسخة في نفوس الشعراء السودانيين مسلمين ومسيحيين على حد سواء، في فترة تعد من أحلك الفترات التاريخية في السودان وهي فترة الاستعمار الإنجليزي - المصري ١٨٩٩ - ١٩٥٦م.

ولا يخفى أن التصير كان من أهم بواعث وأهداف الاستعمار الغربي للعالم العربي الإسلامي، وقد اعتمد التصير على الاستشراق والاستعمار، فقد كان الاستشراق هو العقل المفكر له بينما كان الاستعمار

الأداة المنفذة له، ولا أدلّ على ذلك من فرض سياسة المناطق المقفولة بين عامي (١٩٢٢ - ١٩٤٧م) في منطقة جنوب السودان وذلك (لإضعاف النفوذ العربي الإسلامي فيه لخلق سدّ في وجه المدّ الإسلامي في أفريقيا، وطبقت هذه السياسة في جنوب السودان، ومنطقة جبال النوبة في جنوب كردفان، وشمل التطبيق إبعاد الموظفين السودانيين والمصريين من الجنوب، وإقصاء التجار العرب والمسلمين واستبدالهم بالإغريق وغيرهم من الجاليات، وشمل كذلك منع اللغة العربية واستخدامها، واستخدام اللغة الإنجليزية بدلاً منها لغة رسمية مع تشجيع اللغات المحلية، وشملت السياسة حتى منع اللباس العربي أي الأزياء السودانية التقليدية، وأصبح من الواجب على كل مواطن سوداني يريد السفر إلى الجنوب الحصول على إذن رسمي أي بمعنى آخر أصبح الجنوب يعامل كبلد أجنبي بالنسبة إلى المواطنين السودانيين. وكانت الإدارة البريطانية قد سبقت بسياسة أخرى، تمثلت في منح حق احتكار التعليم في الجنوب للإرساليات المسيحية^(٢) وعلى الرغم من ذلك فقد كانت قيم التسامح الديني تسود بين أفراد الشعب السوداني مسلمين ومسيحيين في تلك الفترة، ولعلّ هذا يؤكد بأنّ الصراع بين الإسلام والمسيحية في السودان لم يكن من الأسباب التي أدت إلى انقسام السودان وهذا ما يحاول أن يثبته الباحث حتى لا يستغل الدين لتأجيج الصراع بين دولتي السودان ، تحقيقاً لأهداف خارجية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه:

١/ يعالج موضوعاً مهماً يؤثر على مستقبل الدعوة الإسلامية في

السودان من جهة، وعلى استقرار السودان السياسي من جهة أخرى.

٢/ يؤكد أن الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية في السودان لم

يكن من أسباب الصراع السياسي بين شمال السودان وجنوبه.

٣/ يؤكد متانة العلاقات والروابط ما بين المسلمين والمسيحيين

في السودان.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي وقمت بجمع مادة

البحث من دواوين بعض الشعراء السودانيين ، كما استعنت بكتب الأدب

السوداني ، وذلك بهدف الوصول إلي أهداف البحث .

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلي هدفين رئيسيين وهما :

١. بيان العلاقة التي كانت تربط بين الشعراء السودانيين مسلمين

ومسيحيين كانت تقوم علي أساس التسامح الديني والاحترام

المتبادل لدين كل منهم .

٢. بيان الاختلاف في الدين بين شمال السودان وجنوبه لم يكن من

الأسباب التي أدت إلي إنقسام السودان .

فروض البحث:

قام الباحث في سبيل الوصول إلي أهداف البحث بطرح هذه الفروض :

١. وجود علاقة تربط بين الشعراء السودانيين المسلمين والمسيحيين

، لأنهم يعيشون في ظل وطن واحد .

٢. لم تتأثر علاقة الشعراء السودانيين المسلمين والمسيحيين

باختلافهم في الدين والعقيدة .

٣. قامت علاقة الشعراء السودانيين المسلمين والمسيحيين على أساس

من التسامح الديني .

٤. لم يكن الاختلاف في الدين بين شمال السودان وجنوبه من

الأسباب التي أدت إلى انفصال السودان إلى دولتين .

خطة البحث:

تم تقسيم الموضوع إلى مبحثين وأربعة مطالب جاءت كما يلي:

المبحث الأول : بعنوان المسيحية والإسلام في السودان.

ويتضمن المطالب الآتية:

أ/ المطالب الأول : المسيحية والإسلام في السودان.

ب/ المطالب الثاني : الصراع بين الإسلام والمسيحية في

السودان.

ج/ المطالب الثالث: عوامل التسامح الديني بين الإسلام

والمسيحية.

المبحث الثاني : التسامح الديني بين الإسلام والمسيحية في الشعر

السوداني.

ويتضمن المطالبين الآتيين:

أ/ المطالب الأول : التسامح الديني عند الشعراء المسلمين في السودان.

ب/ المطالب الثاني : التسامح الديني عند الشعراء المسيحيين في

السودان.

المبحث الأول

المسيحية والإسلام في السودان

المطلب الأول : المسيحية والإسلام في السودان

تسربت المسيحية إلى السودان من مصر، وكان ذلك في حوالي القرن السادس الميلادي على أثر قيام إرسالية تبشيرية أرسلتها مصر في ذلك الوقت إلى بلاد النوبة وكان في شمال السودان ثلاث ممالك مسيحية فيما عدا قبائل البجة:

أ/ مملكة النوبة ويطلق عليها أحياناً "المريس" وكان حدّها من أسوان إلى الشلال الثالث، وعاصمتها فرس.

ب/ ويليها جنوباً مملكة المقرّة، وقد تسمى مملكة دنقلة، وعاصمتها دنقلا العجوز، وكانت بلدة الأبواب "كبوشية" حدّها الجنوبي الذي يفصل بينها وبين مملكة علوة.

ج/ ويلي المقرّة مملكة علوة، وتسمى أيضاً مملكة سوبا، وكانت عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق (٣).

ويذهب الباحث عبد المجيد عابدين إلى أنّ خلافت وصراعاً وقع بين هذه الممالك الثلاث، بيد أن أقصرها عمراً كانت المملكة الشمالية التي يرجح أنها اندمجت في مملكة المقرّة وكان ذلك بين سنتي ٥٨٠ - ٦٥٢م، على أنّ اشتداد الضغط الإسلامي من الشمال من مصر قد ازداد عليها بمرور الزمن حتى أصبحت لا تقوى على مقاومة النفوذ العربي الإسلامي وانمحت نهائياً حوالي ١٣٢٠م، وأصبحت مملكة علوة هي

الباقية وحدها تصارع النفوذ الإسلامي فترة حتى خربها الفونج في أوائل القرن السادس عشر الميلادي^(٤).

ويرجح الباحث عون الشريف قاسم - رحمه الله - أن الإسلام تغلب على المسيحية في السودان بفضل امتزاج العرب الوافدين إليه مع السكان المحليين وإكسابهم الثقافة العربية الإسلامية عن طريق الدعوة لا عن طريق القوة.

يقول (وحين التقى "عمارة دنقس" زعيم الفونج بعبد الله جماع زعيم العرب القواسمة لإسقاط دولة العنج في سوبا عام ١٥٠٥م كانت طبيعة المجتمع قد تغيرت وتمّ تشكيل مجموعة بشرية جديدة متحدة الغايات متجانسة النظرة، انصهر فيها العنصر العربي بالعنصر السوداني الإفريقي في بوتقة الحضارة الإسلامية ... وكانت السرعة الخاطفة التي انتهت بها مملكة علوة، وعاصمتها سوبا دليلاً على أن السكان الأصليين من النوبة والعنج من رعايا دولة علوة بالإضافة إلى العنصر الفونجي الوافد من منطقة جبال الأنقسنا كانوا بحكم ما تشربوه من ثقافات عربية إسلامية نصيراً للحلف الفونجي العبدلابي على حكامهم العنج، وهذا هو التفسير الحقيقي لزوال كل هذه الممالك التي كانت قائمة في السودان، فإن زوالها بهذه السرعة يفترض أحد أمرين: أحدهما أن يكون العرب قد دخلوا بأعداد ضخمة جرارة بحيث استطاعوا بقوتهم العددية إخضاع وإفناء المجموعات السودانية الموجودة، وهو افتراض بعيد، وثانيهما : أن يكون العرب دخلوا ودخل معهم الإسلام، واختلطوا بالسكان الأصليين

وتوالدوا معهم فتغيرت بالتدريج طبيعة المجتمع وهو الافتراض الذي نرجحه^(٥).

أما جنوب السودان فلم يتعرض للمؤثرات العربية الإسلامية التي تعرض لها شماله عندما تدفق العرب على السودان في عهد المماليك على مصر نسبة لعوامل جغرافية بينها الباحث يوسف فضل حسن حيث يقول : (وعندما بلغ العرب المناطق الجنوبية في كردفان اضطروا بسبب غزارة الأمطار للتخلي عن إبلهم، واعتمدوا على البقر في ترحالهم ومن ثم عرفوا بالبقارة، ولكن ذبابة التسي تسي التي تؤذي البقر حرمت البقارة من التوغل جنوب بحر الغزال، وبحر العرب، ومنطقة السدود ، وهناك توقفت المؤثرات العربية الإسلامية ، ولم تستطع تخطي ذلك الحاجز إلا في العهد التركي المصري ، وعندما أزيلت بعض تلك العوامل بتيسير سبل الاتصال بين الجنوب والشمال في العهد التركي المصري تسربت بعض المؤثرات الإسلامية العربية على يد التجار والموظفين بين بعض القبائل الصغيرة في بحر الغزال ، ولكنها لم تنجح في التوغل بين القبائل الكبرى كالدينكا ، والشلك، والنوير)^(٥).

المطلب الثاني : الصراع بين الإسلام والمسيحية في السودان.

يلاحظ الباحث أن الصراع بين الإسلام والمسيحية في السودان

مرّ بفترتين:

أ/ الفترة الأولى كانت المسيحية هي الديانة الغالبة في السودان ، وكان ذلك حوالي القرن السادس الميلادي حتى أوائل القرن السادس عشر

الميلادي حيث قامت أول مملكة إسلامية في السودان وهي مملكة الفونج (١٥٠٥ - ١٨٢١).

ورأينا من قبل كيف أن الإسلام في السودان انتشر عن طريق الدعوة، والامتزاج بالسكان الأصليين في عدة قرون تكاد تبلغ حوالي عشرة قرون، فهي تمتد تقريباً من سنة ٣١هـ - ٦٥١م حيث وقعت أول معاهدة بين ملك النوبة آنذاك، وبين عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وهي المشهورة باتفاقية "البقط" وكانت أشبه بمعاهدة تجارية، وقد جاء في شروطها: (على أهل النوبة في مملكة دنقلة ... أن يحفظوا المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم، ولا يمنعوا منه مصلياً وعليهم كنسه، وإسراجه، وتكرمه^(٦)) إلى سنة ٩١٠هـ - ١٥٠٥م حيث قامت أول مملكة إسلامية في السودان، هي سلطنة الفونج، فقد ظلت الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تفعل فعلها في نفوس، وقلوب السكان الأصليين في السودان حتى تغيرت طبيعة المجتمع السوداني تدريجياً ثقافة وعرقاً ودينياً ولغة فلم يدخل الإسلام إلى السودان عبر الفتوحات الحربية شأن كثير من الدول الإسلامية، ولعل هذا يدل أيضاً على طبيعة التسامح الراسخة في نفوس السودانيين، فقد ظلت الدعوة الإسلامية تشق طريقها في السودان على الرغم من هيمنة الممالك المسيحية الثلاث عليه، فرأينا كيف ابتنى المسلمون في السودان مسجداً في مدينة دنقلة العجوز حاضرة مملكة المقرّة المسيحية، فترة باكرة من عمر الدعوة الإسلامية في السودان، ترجع إلى سنة ٣١هـ، وقد ظلّ هذا المسجد قائماً جنباً إلى جنب مع كنائس النصارى حتى سقطت آخر قلاع المسيحية في السودان

وهي مملكة علوة بعد أن كثر عدد المسلمين من السكان المحليين مع من تحالف معهم من العرب الوافدين حتى صارت لهم الغلبة.

ب/ الفترة الثانية وهي فترة الاستعمار الإنجليزي على السودان ١٨٩٩ - ١٩٥٦م ، وفي هذه الفترة كان الإسلام هو الديانة الغالبة في شمال السودان، بينما كانت إدارة البلاد الفعلية بيد الإنجليز، وكان دينهم المسيحية .

ويلاحظ الباحث أن الإنجليز كانوا في حكمهم للسودان شديدي الدهاء، واسعي الحيلة، بعيدي النظر إلى مستقبل السودان ، بل إلى مستقبل الإسلام والمسيحية، فقد حاولوا أن يطبقوا سياستهم التي تحاول أن تجمع بين نقيضين لا يجتمعان أبداً، فقد كانوا يريدون من جهة إضعاف الإسلام ، وكسر شوكته ، ومنع انتشار دعوته، ويحاولون من جهة أخرى كسب عواطف المسلمين ومشاعرهم في السودان، الذين تميزوا بعمق تدينهم، وقد أفلحوا - كما يرى الباحث - إلى حد بعيد في الأولى بينما لم يفلحوا في الثانية إلا قليلاً ، وذلك من خلال أساليب متعددة من المكر والدهاء، وضروب من البطش والتكيل، يذكر منها الباحث ما يلي:

١/ سياسة القوة والبطش لتحقيق أهدافهم الاستراتيجية حينما لا يكون بد من ذلك، ومن أبرز ما يمثل هذه السياسة سياستهم الرامية إلى عزل جنوب السودان عن شماله بالقوة والبطش والتكيل لكل من يحاول أن يعترض على ذلك، وقد عرفت تلك السياسة بمحاربة الاستعراب Anti Arabication ، وقد كان الاستعمار الإنجليزي يرمي من وراء فرض تلك السياسة إلى عزل جنوب السودان عن شماله حتى لا يتأثر بالثقافة

العربية الإسلامية، ويتم تطويره في محور ثقافته الإفريقية الزنجية، وقد فرضت هذه السياسة فرضاً على الشماليين ، وعومل بقسوة شديدة كل من حاول أن يعارضها ولو بمجرد الكلمة ، يتضح ذلك في قول الشاعر حسن طه:

الإنجليز عرفناهم ونعرفكم — كالذئب غدرأً وكالحرباء تلوننا
قد قسمونا كما شاعت إرادتهم — وفرقونا فلم تعمر مغانينا
لئن شكونا لهم فصل الجنوب رأوا — أن ينشبوا رهباً أظفارهم فينا
وإن رأونا نصلى في الجنوب على — مرأى من الناس ويل للمصلينا^(٧)
٢/ محاولة طمس آثار المهديّة ، واقتلاعها من نفوس المؤمنين بها،
فقد علموا خطورتها لما رأوا من استماتة أنصارها في حروبهم الطويلة
مع الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، بكل
عتادها وسلاحها وقوتها وعلمها، فاستطاع أنصار المهديّة الذين لا
يملكون سلاحاً حديثاً سوى الإيمان بالله، وقوة الإرادة والعزيمة هزيمتها
هزيمة منكرة في تلك الفترة بل وقتلوا أعظم رجالها وأكفأ قادتها، ولهذا
كان أول عمل قامت به جيوش الغزاة بعد احتلال السودان هو تحطيم قبة
الإمام المهدي وهو عمل يُراد به إضعاف الروح المعنوية لمن بقي من
أنصار المهديّة، ثم تتبّعوا مَنْ بقي من أبناء المهدي وقادته فقتلوا أغلبهم،
ولم يبق منهم سوى القليل.

ويلاحظ الباحث أن الإنجليز كانوا في موقفهم من أتباع المذاهب
الدينية في السودان ينطلقون من مبدأ ثابت، يتمثل في موقفهم من الفكر
الإسلامي الذي يقوم عليه هذا المذهب الديني ، فإن كان هذا المذهب يرى

الإسلام علاقة بين الفرد وربّه، كالمسيحية، خلوا بينه وبين دعوته، بل وحاولوا كسب وذه بشتى الطرق، ولو كان بالتظاهر بشعائر الإسلام، فقد ذكر حسن نجيلة عن الإداري الإنجليزي "مور" الذي كان حاكم "كُتم" أنه كان يحفظ بعض سور القرآن الكريم، يقول عنه: (... وبعد أن تم التعارف وتبادلنا التحايا سألتني: ماذا تدرس الآن؟ قلت: بعض سور القرآن. قال: أيّ السور؟ وعجبت ماذا يفيد هذا التساؤل وما مبلغ علمه بالقرآن؟ قلت: أنا نقرأ الآن سورة "الفجر" وفاجأني بأن أكمل الآيات قائلاً: (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) (سورة الفجر: الآيات ١-٣) هكذا نطقها في غير عجمة! ولعله لاحظ دهشتي فضحك وقال: إنني أحفظ بعض سور القرآن) (٨).

بل كان "مور" إذا ما جاء شهر رمضان صامه مع الناس حتى النهاية، ولا يبيح لنفسه أن يفطر يوماً واحداً، وكثيراً ما يدعو الناس للإفطار معه، كما يقبل دعواتهم للإفطار معهم في بيوتهم، وهو بالطبع لا يفعل هذا عن عقيدة دينية، وإنما إمعاناً منه في الاندماج في البيئة التي يعيش فيها، وليسهل عليه معرفة الناس ودراستهم عن كثب، ولكن "مور" مع هذا التفاني في الاندماج بمن حوله، قد جعل من مركز "كُتم" سجنًا كبيراً لا يسمح بالخروج منه أو الدخول إليه إلا لمن يشاء ممن يطمئن إليهم، كان عدواً للتعليم والمدنية، وكل جديد) (٩).

أما إن كان أتباع المذاهب الدينية في السودان يرون أن الإسلام دين ودولة، وأنه يرفض أن يحكم غير المسلم المسلم، ويرون أنّ الإسلام كل لا يتجزأ لا تتفصل العقيدة فيه عن الشريعة ولا العبادة فيه عن شئون

الحياة فإنه يعامل بالقوة والبطش بل قد يصل الأمر إلى القتل والإعدام، بعد أن يراقب مراقبة دقيقة من قلم مخابراتهم، يقول حسن نجيلة في هذا : (كان رجال المخابرات في أول عهد الحكم، وإلى فترة طويلة قبل أن يقوى الوعي الوطني يوجهون أكثر اهتمامهم إلى زعماء العشائر ورجال الدين، وخاصة ذلك النوع من الفقهاء الذين يجوبون القرى والبادي، وكان مبعث هذا الاهتمام أن الحكومة قابلت عدة ثورات عنيفة قادها هؤلاء الفقهاء باسم الدين) ومن أشهر هذه الثورات ثورة عبد القادر إمام ودحبوبة في الحلاوين الذي تم إعدامه سنة ١٩٠٨م.

٣/ محاولة المستعمرين الإنجليز لاستغلال نفوذهم الإداري لمحاربة الدعوة الإسلامية، ولعل أبرز موقف يمثل هذا الاتجاه ما فعله مدير الاستوائية آنذاك، ويدعى المستر "يار" حينما حاول نزع ملكية قطعة الأرض، ووقف جامع جوبا، وإعطائها لأحد التجار الإغريق، بحجة أن لجنة جامع جوبا مفلسة، ولا يمكنها بناء الوقف في الوقت الحاضر^(١٠) غير أن الله رد كيده في نحره فقد تم بناء الجامع بجهود جبارة بذلتها لجنة الجامع.

٤/ محاولة استغلال المدارس ، والجامعات التي افتتحها هؤلاء المستعمرون الإنجليز للتأثير على طلابها، ومحاولة تنصيرهم، يثبت حسن نجيلة هذه الحادثة التي وقعت في إحدى مدارس الإرساليات بقوله : (وكانت مدارس الإرساليات تنصيد أبناء الفقراء، والطبقات الدنيا، وتغرر بهم، فتأمرهم بأداء الطقوس الدينية المسيحية، وتحفظهم الإنجيل، وتعمل كل ما يؤدي إلى سلخهم من دينهم الإسلامي، وتنبه الناس فجأة

إلى هذا الخطر إثر حادث مشهور، إذ طلق أحد السودانيين زوجه تاركاً لها طفلين، فضافت بتربيتهما ذراعاً فألقت بهما بين يدي رجال هذه المدرسة التبشيرية، وتلقفوهما بالحمد والرضاء، وظل الطفلان في مدرستهما سنوات، لقنا فيها تعاليم المسيحية وأحسننا أداء طقوسها، وسمع الوالد فرغ قضية شرعية يطالب بضم الولدين إليه، وحكم لصالحه بعد لأى... وهياً قادة الرأي فأخذوا يعملون لإنشاء مدرسة ابتدائية أهلية، تستوعب أبناءهم الذين لم يجدوا حظاً في المدرسة الحكومية حتى لا يقعوا بين يدي المبشرين^(١١).

٥/ إغلاق خلاوي تحفيظ القرآن للناشئة خشية أن توقظ الشعور الديني ضد الاستعمار الإنجليزي المسيحي فقد اقتضت مخططاتهم - الإنجليز - بأن تغلق آلاف المدارس التي كانت تعنى بتحفيظ القرآن خشية أن توقظ الروح الديني المجاهد من جديد، ولم تجعل لها بديلاً، فكان عدد الأطفال الذين يتقدمون للالتحاق بالمدارس الأولية القليلة بكل مدرسة منها يقرب من خمسمائة ولا يؤخذ منهم سوى أربعين^(١٢).

٦/ وكان أسوأ ما قام به المستعمرون الإنجليز هو تغيير دستور البلاد وقوانينها من الشريعة الإسلامية إلى العلمانية وذلك لتنفيذ أهداف وبرامج الغزو الفكري بعد الغزو العسكري للبلاد، ولذا سارت البلاد في عهد الاستعمار في ركاب العلمانية حيث أبيحت للناس المحرمات والفواحش، بفتح أماكن الخمر وبيوت الدعارة، وذلك لهدم القيم الدينية، والاجتماعية انتقاصاً وانتهاكاً للمبادئ الإسلامية الحميدة^(١٣).

المطلب الثالث

العوامل التي أدت إلى التسامح الديني

بين الإسلام والمسيحية في السودان

هناك عدة عوامل ساعدت على إذكاء روح التسامح الديني بسين الإسلام والمسيحية بين الشعراء السودانيين ، بعضها يتعلق بالدين الإسلامي، وبعضها يتعلق بالظروف السياسية التي تمر بها البلاد آنذاك ، ونفصلها في المبحثين الآتيين

المبحث الأول : ما يتعلق بالدين الإسلامي :

من عظمة الإسلام أنه أمر بحسن المعاملة مع الذين يختلفون معه حتى في العقيدة والدين كالنصارى، واليهود ، وفي القرآن الكريم إشارات خاصة إلى موقف النصارى من الإسلام عند ظهوره، وتأثرهم به، وذلك في قوله تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيّينَ وَرَهْبَتَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (سورة المائدة : الآية رقم ٨٢).

ومن ثم فقد أمر الإسلام المسلمين بالانفتاح اجتماعياً على غيرهم من أهل الكتاب، فقال تعالى : (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) (سورة المائدة : الآية رقم ٥).

وقد سعادهم القرآن أهل الذمة تعظيماً لفسانهم، وقد أوصى الله سبحانه، ورسوله صلى الله عليه وسلم بحسن معاملتهم، فقد قال تعالى : (لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ يَنْتَهِبُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) * إِنَّمَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَظَلَّاهُمْ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (سورة الممتحنة : الآيتان ٨،٩).

وقد أعطى الإسلام لأهل الذمة كافة حقوقهم، وحرياتهم الدينية والمدنية (فلهم تولي وظائف الدولة كالمسلمين إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية، وقد تولي عدد كبير من أهل الكتاب أرفع المناصب في بلاط الأمويين والعباسيين، فكان منهم الأطباء، والحجاب، والكتاب والوزراء)^(١٤).

وقد حث الإسلام على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتى هى أحسن ، ولا شك أن هذا كله مما يؤدي إلى تقوية العلاقات الاجتماعية بينهم ولا سيما إياحة طعامهم لنا، وإياحة طعامنا لهم، وهذا يؤدي إلى حسن التفاهم بينهم، ومحبة بعضهم لبعض ، فلا يصبح الاختلاف في الدين حاجزاً يفصل بينهم بل يصبح مدعاة إلى المحبة والتآلف.

وقد شهد "سلاطين باشا" بمدى الحرية الدينية التى كان يتمتع بها السودانيون، فكانت تتجاور فيه مساجد المسلمين، وكنائس النصارى، يقول : (إن أعظم ما تمتع به السودان في أثناء الحكم المصري الطويل

هو قيام كل فرد بشعائره الدينية ، ونشر العلوم حسيما يوجي إليه ضميره، فكنت ترى مساجد المسلمين، وكنائس المسيحيين في أماكن قريبة يقصدها أبناءها بمطلق الحرية وفي هدوء واطمئنان^(١٥).
المبحث الثاني : ما يتعلق بالظروف السياسية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك:

اشتد الشعور الوطني في تلك الفترة التي وقع فيها العالم العربي والإسلامي في قبضة الاستعمار الغربي، ولذا كان عاملاً مهماً من عوامل وحدة الشعوب العربية، فقد أدركت الأمة العربية أنها لن تستطيع أن تتخلص من الاستعمار الغربي إلا بوحدة شعوبها على اختلاف ألوانها وأديانها، ومن هنا كان التسامح الديني في تلك الفترة يمثل ملمحاً بارزاً في تاريخ الأمة العربية على اختلاف أقطارها، فهذا جبران خليل جبران يقول : (أحبك يا أخى ساجداً في جامعك، وراكعاً في هيكلك ، ومصلباً في كنيستك، فأنت وأنا أبناء دين واحد هو الروح)^(١٦)

وهذا الشاعر السوداني مصطفى يوسف التني يقول:

نبي بالائتلاف آمالنا البعيد

لا نعرف الخلاف في الجنس والعقيدة

فالدين للإله والمجد للوطن^(١٧)

وكان ذلك مما ساعد على إنكاء روح التسامح الديني في نفوس المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء في الأمة العربية والإسلامية آنذاك التي تعرضت للاستعمار الغربي؛ ذلك (لأن حضارة الغربي قائمة على الاستعلاء العرقي والديني ... وقد رأينا الأوربي حينما ذهب لا يرضى

بمعايشة غيره من الأقوام أو الثقافات، بل يبقى ما أمكنته القدرة إلى محو غيره من الناس والأفكار، إذا لم يستجيبوا لسلطانه، وهكذا ذهب الهنود الحمر في الأمريكتين، وذهب السكان الأصليون في استراليا، وحين لم يستطيعوا محو الكثرة الغالبة من الأفارقة السود في الجنوب الأفريقي تفوقوا في دويلة بيضاء، وسجنوا عشرات الملايين من الأفارقة في الصحارى والغابات، والغاية المرسومة تغريب العالم وصياغته قانونياً وتربوياً وسياسياً واقتصادياً على النمط الغربي، وما أبعد ذلك عن نهج الإسلام الذي لم يحفظ لغيره من أصحاب الديانات حقوقهم فحسب بل حفظ لكل الشعوب والأمم التي نزل بها، شخصياتهم القومية في إطار إسلامهم الفاعل (١٨).

ولذا كان الشعراء المسيحيون في السودان أقرب إلى أخوتهم الشعراء المسلمين في السودان منهم إلى أخوتهم في الدين المسيحي من المستعمرين الإنجليز، لا سيما وأن الإنجليز مارسوا ضروباً من الاضطهاد والذل للشعب السوداني، وساموهم ألواناً من الظلم، وقد ذكر منها حسن نجيلة في كتابه "ملاحم من المجتمع السوداني" و"ذكرياتي في البادية" ضروباً (١٩).

المبحث الثاني

التسامح الديني في الشعر السوداني

بين الإسلام والمسيحية

المطلب الأول : التسامح الديني عند الشعراء المسلمين في السودان :-

ذكرنا أن قيم التسامح الديني كانت راسخة في نفوس الشعراء المسلمين والمسيحيين على حد سواء في السودان، ونذكر هنا بعض ما يدل على هذا التسامح من الشعراء المسلمين تجاه إخوانهم في الدين المسيحي، يتضح لنا هذا التسامح في مواقف الشعراء المسلمين في السودان من الاستعمار الإنجليزي إذ لا يخفى أن المستعمرين الإنجليز كانوا مسيحيين ، وكانوا يعلنون شعائر دينهم ما أمكنهم ذلك فقد كان أول عمل قامت به جيوش الغزاة بعد احتلال السودان هو تحطيم قبة الإمام المهدي في أم درمان، وفي اليوم التالي أبحر كتشنر مع قوة كبيرة إلى الخرطوم حيث أدى الصلاة مع جنوده المسيحيين أمام القصر الذي شهد مصرع "غردون" في ٢٠ يناير ١٨٨٥^(٢٠) . ومع هذا نرى أن الشعراء السودانيين المسلمين لا يرفضون أبداً دين هؤلاء المستعمرين ولا يعيبونه، ولا ينتقصون منه، بل نراهم يذكرون محاسن الدين المسيحي، فكثيراً ما يذكر الشاعر صالح عبد القادر عدل الدين المسيحي ، وأنه دين يقوم على التسامح والمحبة، ولا يقبل ظلم الأبرياء^(٢١) . فيقول عن المستعمرين الإنجليز ، وقسوتهم وظلمهم للشعوب التي حكموها ، مع أنهم أتباع سيدنا عيسى - عليه السلام - الذي عرف بعدله ، يقول :

لم يخلجوا شتوا الوثاق وصفّوا ومن العجائب تخجل الأصفاد
أنصار عيسى كان عيسى عادلاً ما راقه ظلم ولا استبداد^(٢٢)

وهذا هو الشاعر أحمد محمد صالح ينعى على الغرب ظلمه
للشعوب، وتسخير العلم لتنفيذ أطماعه، ولا يبالون بقتل الأبرياء، وبكاء
اليتامى والأرامل، يقول:

هذا هو الغرب قد أبدى نواجذه وأطلق الشر من أوكار برلينا
إلى أن يقول:

| | |
|-----------------------------|---|
| قد سخروا العلم وابتدعوا | وسائل الفتك أشتاتاً أفانينا |
| فالجو بالطائرات السود معتكر | والأرض بالدم قد سالت مياديننا |
| والبحر مضطرب الأمواج مصطحب | يفور تنوره يحكى البراكينا |
| فهل سمعت عويل النائنات ضحى | وهل رأيت اليتامى والمساكيننا |
| نبيكم جاء بالأخلاق يأمزهم | ما بالهم لا يجيبون النبيينا |
| ما بالهم ركبوا للشر رؤسهم | وسودوا صفحة الإنجيل تلويناً ^(٢٣) |

ويبلغ التسامح الديني ذروته عند الشاعر التجاني يوسف بشير
حينما ينظر إلى الأديان كلها نظرة تسامح، ومحبة وإخاء، ويعجب من
هؤلاء المسلمين الذين يحقدون على أصحاب البيع من النصارى، ومن
هؤلاء الذين يتعصبون لدينهم ويثورون لمجد كنيستهم، ولو أنهم نظروا
إلى الأديان نظرة واسعة سامية فاحصة، وتغلغلوا إلى حقيقة الوجود،
ولمسوا بأيديهم سر الكون لنظروا إلى الأديان جميعاً نظرة حب وعطف
وتقدير، فكلها في الأرض مشاعل هدى، وبواعث خير، ورسالات سلام
ومحبة، ولعلموا أن "بنت وهب" شقيقة "لمريم العنراء" (٢٤).

يقول الشاعر التجاني:

| | |
|-------------------------|---------------------------------------|
| ها هنا مسجد مغيظ على ذي | البيع الطهر والمسوح الوضاء |
| وهنا راهب من القوم ثوار | لمجد الكنيسة الزهراء |
| كلها في الثرى دوافع خير | بنت وهب شقيقة العنراء ^(٢٥) |

كما أن الشعراء السودانيين المسلمين لم يرفضوا حضارة الغرب العلمية والتقنية لأنها حضارة لمسيحي يخالفهم في الدين، بل لأنها قامت على ظلم الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها ، واستغلالها أسوأ استغلال ، يقول الشاعر محمد سعيد العباسي عن الحضارة الغربية:

| | |
|---|------------------------------|
| سارت وتحت لواء العلم خفاقا | إن الشعوب بنور العلم مؤثلقاً |
| عصيها وبقاع البحر أعماقا | وطوفوا ببقاع الجو فامتلكوا |
| لم تشك أيناً ولا وخذاً وإعناقاً | وكل بحر أحالوا موجه سفناً |
| لكنها قد حوت فتحاً وإحداقاً ^(٢٦) | يا حسنها لوحوت أمناً وعافية |

ويرى الباحث أن الشعراء السودانيين المسلمين وقفوا من المستعمر الإنجليزي ثلاثة مواقف هي:

منهم: أ/ من رفض الاستعمار الإنجليزي، ووقف منهم موقفاً معادياً لكونهم مستعمرين أجانب، وغلب عليه الجانب السياسي ، فصور ظلم الإنجليز واستبدادهم واستغلالهم لثروات البلاد، ومن أبرز هؤلاء الشعراء الشاعر توفيق صالح جبريل يقول في قصيدة بمناسبة زيارة اللورد "النبّي" نائب ملك بريطانيا في مصر إلى السودان:

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| أيها القوم لا تجروا الذيولا | يأنف الحرُّ أن يعيش ذليلاً |
| سمتمونا العذاب ضيقتم الأرض | علينا حتى هويانا الرحيلا |
| إن أردتم صلاحنا قد فعلتم | فاعذرونا إذا مللنا الدخيلا |
| أيها الزعيم أودى بنا الفقر | فعطفاً فقد صبرنا طويلاً |
| فقبّح أن نرتضي الذلّ دهرأ | ونرى مالنا لكم مبذولاً |

إلى أن يقول :

كل يوم تبدو بثوب جديد من دهاء فحسبكم تبديلا
تلك عشرون حجة بعد خمس قد تقضت وما شفيتم غليلا
فادعيتم نشر الحضارة والعرفان والشعب ما يزال جهولا^(٢٧)
وهؤلاء كثر وشعرهم غزير مستفيض.

ب/ ومنهم من وقف من المستعمرين الإنجليز موقفاً معادياً، وغلب عليه الجانب الديني، فصور فساد الإنجليز وإفسادهم ، ومن أبرزهم الشاعر

يقول في قصيدة له:
يا صاحب القرآن نظرة مشفق الدهر خان وحلت البأساء
عظفاً على الإسلام إن شعوبه اجتicht وقد لعبت بها الأعداء
عانت به أيدي الطغاة فبدلت أزياءه فتجاهل العلماء
إلى أن يقول:

هل أوهن الإسلام إلا أهله ما أيدوه لأنهم جنباء
عقدوا على هدم الشريعة ويحهم قد أفسدوا ما أصلح الآباء
وديار فسق فتحت أبوابها علناً وبات يؤمها الأبناء
يا معشر الإسلام عفواً لم تكن ترضى بهذا همة شماء^(٢٨)
وهؤلاء أيضاً كثيرون ، وشعرهم مستفيض.

ج/ وقليل من الشعراء السودانيين المسلمين من هادن الاستعمار الإنجليزي، ومدح رجاله، وتعددت دوافع هؤلاء في مدحهم للإنجليز، فمنهم من مدحهم طمعاً، ومنهم من مدحهم إعجاباً ، ومنهم من مدحهم استمالة لهم تحقيقاً لمصالح وطنية كالشاعر حمزة الملك طمبل، وفي هذا

يقول حسن نجيلة معللاً لمدح الشاعر أحمد محمد صالح للسير "استاك" حاكم عام السودان آنذاك حينما دعا الشاعر المواطنين السودانيين للتبرع لمدرسة الطب يقول حسن نجيلة : (ودعا الناس - أي الشاعر - وحثهم للتبرع لمدرسة الطب ، وكان لابد أن يرشو الإنجليز ببيت أو بيتين من الشعر شاكرأ لهم أن عملوا على إقامة هذه المدرسة ، التي تتوق إليها البلاد ، فقد كان هذا الأسلوب ضرورياً جداً في تلك الفترة)^(٢٩)، وكان بعض هؤلاء الشعراء السودانيين المسلمين الذين مدحوا الإنجليز من أصول غير سودانية كالشيخ على الشامي الذي مدح اللورد كتشنر فهو شامي الأصل^(٣٠).

يقول حمزة الملك طمبل في قصيدة نظمها بمناسبة زيارة اللورد اللنبى للسودان مخاطباً له:

| | |
|---------------------------|-----------------------|
| أنا اهوى الكمال في كل نفس | وأجل الرجال من كل جنس |
| وإذا جاشت العواطف في نفسي | عمدت إلى دواتي وطرسي |
| فاتح القدس قد تغمدك الله | بروح من المهيمن قدسى |
| إلى أن يقول: | |

| | |
|---------------------------|--|
| فأسعدونا فقد شقينا بجهل | مطبق كالدجى وفقر وبؤس |
| وافتحوا فنحن أحوج منكم | ليد تعمّر البلاد ورأس |
| وادفعونا إلى الأمام فأنتم | أقدر العالمين من غير لبس ^(٣١) |

وقد تفهم من أبيات القصيدة أن الشاعر قد تأثر بالحضارة الغربية ، ورأى أن وطنه لن يتقدم إلى الأمام إلا إذا سار في ركابها ، واستفاد مما قام به رجالها العظماء من جهود جلييلة في العلم والمعرفة، ولذا يرجوهم أن يساهموا في تعليم شعبه ودفعه إلى الأمام لأنهم أقدر العالمين

- في رأي الشاعر - أنذاك على ذلك، أما الذي لا يفهمه للباحث هو كيف يتسنى له وهو الشاعر المسلم أن ينعت اللورد اللنبي أو يمدحه بأنه فاتح القدس؟! وهل فتح القدس على أيدي هؤلاء الفرنجة المسيحيين ماثرة من مآثر اللورد اللنبي؟! الذي مهّد من بعد لإسرائيل لاحتلال فلسطين الحبيبة، واحتلال القدس الشريف سنة ١٩٤٨م.

ومن مظاهر هذا التسامح الديني نجد بعض الشعراء المسلمين يعشقون بعض الحسانوات من أقباط المسيحيين، ويؤدي بهم هذا العشق إلى عشق كل رموز العقيدة المسيحية، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الشاعر التجاني يوسف بشير الذي شاع أنه شغف بالمتفرجات ، ويروى أنه كان يتردد على كنيسة المسالمة في أيام الأحاد ، حيث تتاح روعة مشهد حسان الأقباط في الحلل الزاهية ، يأتين للصلاة أو ينصرفن بعد الفراغ من أدائها^(٣٢).

وسواء أكان عشق التجاني للنصرانيات نابعاً من عشقه للجمال حيثما كان، أو كان ضرباً من ضروب التسامح الديني، ففي كلتا الحالتين فإن التجاني قد استطاع أن يدرك بحسه ووجدانه معنى التسامح الذي يزيل الفجوة بينه وبين جمال النصرانيات^(٣٣).

يقول التجاني معبراً عن عشقه للجمال حيثما كان:

| | |
|-------------------------|--------------------------------------|
| ترود بك الصبابة كل يوم | مجاهل كل أهلها غريب |
| وجنّ بك الهوى فهنا غريب | علقت به وهنّا حبيب |
| وتلك وفي معاصمها سوار | وذاك وفي ترائبه صليب ^(٣٤) |

المطلب الثاني: التسامح الديني عند الشعراء المسيحيين في السودان:

رأينا كيف أن الشعراء السودانيين المسلمين بلغ بهم التسامح إلى درجة عشق النصرانيات ، ونرى أيضاً أن الشعراء السودانيين المسيحيين بلغ بهم التسامح حداً إلى أن أخذوا يحثون الشعب السوداني على إكمال بناء مساجدهم لتتطلق من مآذنها الدعوة إلى الله!، فقد وقف الشاعر صالح أفندي بطرس موقفاً عجباً من بناء جامع أم درمان الكبير ، يحكى ذلك حسن نجيلة بقوله : (فالذين عاشوا في ذلك العهد يذكرون أن مسجد أم درمان الكبير ظلّ بناؤه ناقصاً لفترة طويلة، وكانت التبرعات تجبى له في كثير من البطء، وكان مما يحز في النفوس أن يظل هذا المسجد فترة طويلة وبناؤه غير مكتمل ، وأثار هذا الموقف المشين شاعرنا الفتى المسيحى صالح بطرس فبعث إلى الحضارة بهذه القصيدة ينعى فيها على المسلمين تباطؤهم في إكمال مسجدهم! وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير في تحمس الناس لإكمال بناء المسجد)^(٣٥).

وفيهما يقول:

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| يا مسجداً مطلت بنوه بعهد | حتى غدا وهو الحسير المعدم |
| بدأوك جوداً بالصنيع وأحجموا | ما كان أولى أن ذاك يتمم |
| بيننا تشيد إذ وقفت كأنك | الطلل المحيل عفاه هام مرهم |

إلي أن يقول :

| | |
|-------------------------------|-------------------------|
| قد لوحت شمس النهار بجرها | من جانبك ففي شبابك تهرم |
| لا تتقي هذي ولا هذي وهل يوماً | يشابه حاسراً متعمم |
| لو كنت تنطق بالشكاة لهالهم | منك العويل وأنة لا تكتم |

ثم يقارن الشاعر بين حال مسجد أم درمان وبين حال مساجد المسلمين قديماً فيقول:

| | |
|--------------------------------|---|
| لكنما أبديت حالك صامتاً | فرش الصوامت إذ قسا المتكلم |
| أترى المساجد في القديم تشاد في | أبهى الشكول فمذهب ومرخم |
| فيها من التحف البديعة معجب | مستلح ومن الطراز منم |
| ليست من الذهب الصقيل كرائماً | وحوت من الأحجار ما هو أكرم |
| ونراك تعجزهم بأن تبني بأجر | وتسقف بالعروق وتردم |
| أمنارة الدين الحنيف تحية | من شاعر لك قد غدا يترحم ^(٣٦) |

نحسّ في هذه القصيدة بصدق مشاعر الشاعر تجاه الجامع فجاءت أحاسيسه نابغة من أعماق وجدانه، تعاطفاً مع بيت من بيوت الله، ومنارة من منارات الدين الإسلامي الحنيف، ولا نحس في هذه القصيدة تكلفاً أو مجاملة يتضح ذلك من تشخيصه للجامع وتصوير ما أصابه من تعرض للرياح والحرّ والبرد، وتصوير ما يعتل في داخله من آلام مكبوتة، حتى لو كان باستطاعة هذا الجامع أن يشكو نطقاً أو أنيناً لفعل.

وهذه الأبيات تذكرنا بتعاطف الشاعر عنتره مع فرسه حينما أصابته رماح الأعداء فسال دمه غزيراً، فشكا إلى صاحبه بعبرة وتحمم، يقول عنتره:

| | |
|-------------------------------|---|
| فازورّ من وقع القنا بلبانه | وشكا إلى بعبرة وتحمم |
| لو كان يدري ما المحاورة اشتكى | ولكان لو علم الكلام مكلمي ^(٣٧) |

وكأنما نظر الشاعر صالح بطرس إلى بيتي عنتره فتجده يقول:

لو كنت تتطق بالشكاة لهالهم منك العويل وأنة لا تكتم

ولعل هذا يدل على عمق تأثير الشاعر بما أصاب هذا الجامع، ولا سيما حين ينتقل بك إلى فن العمارة الإسلامي في بناء المساجد، فيصور كيف كانت تبنى وتشاد، وفيها من التحف الكريمة والذهب والأحجار الكريمة ما فيها، ثم يعود بك حالاً إلى جامع أم درمان ليقارن بينه وبين حال مساجد المسلمين، فيمس الوتر الحساس لدى إخوانه مسلمي السودان حينما يصورهم عاجزين عن بناء جامعهم بالآجر والطوب، ولعل هذا ما أثار غيرة المسلمين في السودان عندما سمعوا هذه القصيدة من شاعر مسيحي يحثهم على بناء بيت من بيوت الله، يؤمنون إيماناً جازماً بما أعدّه الله من أجر وثواب لمن يقوم ببناء بيوته وعمارتها، فكان أثر القصيدة عظيماً ووقعها شديداً على نفوس المسلمين في السودان، وكفى بهذا دليلاً على صدق شاعرها.

ولا شك أن هذه القصيدة عظيمة الدلالة، ساطعة البرهان، قوية الحجة على ما وصل إليه التسامح الديني آنذاك بين الشعراء السودانيين مسلمين ومسيحيين حتى رأينا شاعراً مسيحياً يدعو إخوته المسلمين بهذا الأسلوب الذي فيه من العتاب والتفريع ما فيه لبناء جامع، ليكون منبراً من منابر الدعوة الإسلامية.

ويتضح هذا التسامح الديني أيضاً في موقف بعض الشعراء المسيحيين من الاستعمار الإنجليزي، فعلى الرغم من أن الشعراء المسيحيين يرتبطون مع المستعمرين الإنجليز برابطة الدين المسيحي إلا أن ارتباطهم بأخوتهم المسلمين في السودان في الوطنية كان أقوى، ولذا نجدهم يثورون على المستعمرين الإنجليز ويدعون إلى وحدة الأمة

السودانية باختلاف قبائلها وأديانها، فهذا الشاعر جوزيف لطيف صباغ يقول:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أبأ الضيم قد نادى المنادى | فهيا ارفعوا علم الجهاد |
| فأنتم يا بني السودان طراً | على أعناقكم أمل البلاد |
| مضى زمن الرقاد لغير عود | وما قتل البلاد سوى الرقاد |
| وما قتل البلاد سوى شقاق | ورأى لا يمت إلى سداد |
| وما قتل البلاد سوى دخیل | أذاق الشعب عادية العوادي |
| وفرّق شمله عن سوء قصد | ليصبح خاضعاً سهل القياد |
| فهيا يا بنى الأحرار سيروا | بعزم ثابت نحو الرشاد |
| وكونوا للبلاد أسود غاب | ولا تتخلفوا يوم الجلاذ |
| ولا تلقوا القياد إلى غريب | ولا ترضوا بغير الحق هاد |
| غريب الدار يسعى كالأفاعى | لبث سمومه في كل ناد |

خاتمة البحث

هكذا كانت قيم التسامح الديني راسخة في نفوس الشعراء السودانيين مسلميهم ومسيحييهم على حد سواء، فلم نر - في حدود علم الباحث - شاعراً سودانياً مسلماً يتعرض للدين المسيحي أبداً على الرغم مما فعله المستعمرون الإنجليز، بل نجدهم يمدحون الدين المسيحي ويمدحون سيدنا عيسى عليه السلام - ويبادلهم الشعراء المسيحيون احتراماً باحترام لمعتقداتهم، بل ويصل الأمر إلى دعوة المسلمين لبناء جامع من جوامعهم ليكون منبراً للدعوة الإسلامية، كما نجدهم يدينون الاستعمار الإنجليزي، وإن اتفق معهم المستعمرون في المسيحية لكن ارتباطهم بإخوتهم المسلمين في السودان في الوطنية كان أكبر وأقوى وكفى بهذا شاهداً على التسامح الديني بينهم.

ومن هنا يميل الباحث إلى أن الاختلاف في الدين بين شمال السودان وجنوبه لم يكن من الأسباب التي أدت في نهاية الأمر إلى انفصال السودان إلى دولتين : شمالية عربية مسلمة ، وجنوبية إفريقية غير مسلمة .

هوامش البحث

- ١/ عبد الوهاب الأفندي وآخرون، السودان على مفترق الطرق، بعد الحرب - قبل السلام، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، ص ٢٣.
- ٢/ المرجع السابق، ص ١٤
- ٣/ عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، منشورات الخرطوم عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٥، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥، ص ٢٢-٢٣
- ٤/ عون الشريف قاسم، الإسلام والعربية في السودان، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ١٣-١٤
- ٥/ يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان، الخرطوم ١٩٧٥م، ج ١، ص ١١٨
- ٦/ عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، مرجع سابق، ص ٢٨
- ٧/ مصطفى عوض الله بشارة، الشعر السوداني على منصة التاريخ - دراسة أدبية - تاريخية للفترة من عام ١٨٨١ - ١٩٢٤م، مطابع شركة السودان للعملة المحدودة، ص ٢٠٩
- ٨/ حسن نجيلة، ذكرياتي في البادية، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم - السودان، ص ٥٩-٦١
- ٩/ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

١٠/ حسن نجفلة؁ ملامح من المءتمع السوءافف؁ ءار عزة للنشر

والتوزفء؁ الخرطوم - السوءان؁ ص ٥٣٢

١١/ حسن نجفلة؁ ملامح من المءتمع السوءافف؁ ص ٢٩٣-٢٩٤؁

مرجع سابق.

١٢/ مصطفى عوض الله بشارة؁ الشعر السوءافف على منصة

التاففء ءراسة أءبفة - تافففة للفترة من عام ١٨٨١ - ١٩٢٤م؁

ص ٢٨٦؁ مصدر سابق

١٣/ مصطفى عوض الله بشارة؁ الشعر السوءافف على منصة

التاففء ءراسة أءبفة - تافففة للفترة من عام ١٨٨١ - ١٩٢٤م؁

ص ٣٢٠؁ مصدر سابق

١٤/ عون الشرف قاسم؁ الإسلام والعرففة فف السوءان؁

ص ٢٤١؁ مرجع سابق.

١٥/ عبء المءفء عابءفن؁ تاففء الثقافة العرففة فف السوءان؁

ص ٩١؁ مرجع سابق.

١٦/ بلة عبء الله مءنف؁ تطور الشعر العرفف فف السوءان؁ شركة

مطابع السوءان للعملة المءءوءة - الخرطوم ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م؁

ص ٢٧١

١٧/ المصدر السابق؁ الصفة نفسها.

١٨/ عون الشرف قاسم؁ الإسلام والعرففة فف السوءان؁

ص ٢٤٢-٢٤٣؁ مرجع سابق.

١٩/ انظر؁ حسن نجفلة؁ ملامح من المءتمع السوءافف؁ ص ٣٦٨؁

مرجع سابق؁ وءكرفافف فف الباءفة؁ ص ٥٩

٢٠/ عواطف عبد الله عمر، صالح عبد القادر حياته وشعره، دار

الجيل - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ١٩٩١م، ص ٨٧

٢١/ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٢٢/ أحمد محمد صالح، ديوان مع الأحرار، دار البلد، الخرطوم

١٩٩٨م، ص ٢٢

٢٣/ عبد المجيد عابدين، التجاني شاعر الجمال، الطبعة الثالثة

١٩٦٢، ص ٣٩

٢٤/ التجاني يوسف بشير، ديوان إشراقة، مطبعة التمدن -

الخرطوم الطبعة الرابعة ١٩٦٢م، ص ١٣

٢٥/ محمد سعيد العباسي، ديوان العباسي، دار البلد - الخرطوم

١٩٩٩م، ص ٨٩.

٢٦/ مصطفى عوض الله بشارة، الشعر السوداني على منصة

التاريخ، ص ٩٤، مصدر سابق.

٢٧/ المصدر السابق، ص ٢٨٤

٢٨/ حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، ص ٢٨٨،

مرجع سابق.

٢٩/ سعد ميخائيل، شعراء السودان، مكتبة الشريف الأكاديمية

للنشر والتوزيع - الخرطوم ص ٢٣٥

٣٠/ مصطفى عوض الله بشارة، الشعر السوداني على منصة

التاريخ، ص ٣٠٥، مصدر سابق.

٣١/ أحمد محمد البدوي، التجاني يوسف بشير لوحة وإطار،

ص ٨٤

٣٢/ بلة عبد الله مدني، تطور الشعر العربي في السودان، ص ٢٧١، مصدر سابق.

٣٣/ التجاني يوسف بشير، إشراقة، ص ٤٤ مرجع سابق.

٣٤/ حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السوداني، ص ٧٥-٧٦، مرجع سابق.

٣٥/ سعد ميخائيل، شعراء السودان، ص ١٤٠-١٤١، مصدر سابق.

٣٦/ أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات العشر، دار الجيل - بيروت، ص ٢١٣

٣٧/ مصطفى عوض الله بشارة، مواقف ورؤى في الشعر السوداني، دراسة أدبية، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة - الخرطوم، الطبعة الأولى، ص ٢٨٧ .

مصادر ومراجع البحث:

١. أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني ، شرح المعلقات العشر ، دار الجيل بيروت .
٢. أحمد محمد البدوي ، التجاني يوسف بشير لوحة واطار .
٣. أحمد محمد صالح ، ديوان مع الأحرار ، دار البلد ، الخرطوم ١٩٩٨ م .
٤. التجاني يوسف بشير ، ديوان إشراقة .
٥. بلة عبدالله مدني ، تطور الشعر العربي في السودان ، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة ، الخرطوم ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
٦. حسن نجيلة ، ذكرياتي في البادية ، دار عزة للنشر والتوزيع ، الخرطوم - السودان .
٧. حسن نجيلة ، ملامح من المجتمع السوداني ، دار عزة للنشر والتوزيع ، الخرطوم - السودان .
٨. سعد ميخائيل ، شعراء السودان .
٩. عون الشريف قاسم ، الإسلام والعربية في السودان ، دار الجيل - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
١٠. عبدالوهاب الأفندي ، السودان علي مفترق الطرق ، بعد الحرب - قبل السلام ، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م .
١١. عبدالمجيد عابدين ، تاريخ الثقافة العربية في السودان ، منشورات الخرطوم عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٥ م ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥ م .

١٢. عبدالمجيد عابدين ، التجاني شاعر الجمال ، الطبعة الثالثة

١٩٦٢م.

١٣. عواطف عبدالله عمر ، صالح عبدالقادر حياته وشعره ، دار

الجيل - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ١٩٩١م .

١٤. محمد سعيد العباسي ، ديوان العباسي ، دار البلد - الخرطوم

١٩٩٩م.

١٥. مصطفى عوض الله بشارة ، الشعر السوداني علي منصة

التاريخ ، دراسة أدبية تاريخية للفترة من عام ١٨٨١م -

١٩٢٤م ، مطابع شركة السودان للعملة المحدودة.

١٦. مصطفى عوض الله بشارة ، مواقف ورؤي في الشعر

السوداني ، دراسة أدبية ، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

- الخرطوم الطبعة الأولى.

١٧. يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، الخرطوم

١٩٧٥م .